المحاضرة الاولى

علم المعاني

نشأته وتعريفه

علم المعاني من المصطلحات التي أطلقها البلاغيون على مباحث بلاغية تتصل بالجملة وما يحدث فيها من تقديم وتأخير، أو حذف وذكر، أو تعريف وتنكير، أو قصر، أو فصل أو وصل.
وليس في كتب البلاغة الأولى إشارة الى هذا العلم، ويعدّ السكّاكي (ت ٦٢٦هـ)، في كتابه (مفتاح العلوم)، أول من أشار إليه، وسمّى به قسما من موضوعات البلاغة.

وكان العلماء العرب، قبله، يستعملون مصطلح (المعاني) ، في دراساتهم القرآنية والشعرية، فيقولون: (معاني القرآن) أ، (معاني الشعر)، ويتّخذون من ذلك اسما لكتبهم، وليس في هذه المصطلحات ما يتصل بالبلاغة أو بأحد علومها.

وقد عقد أحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ)، في كتابه (الصاحبي) بابا سماه ((معاني الكلام))، وهي عند أهل العلم عشرة: خبر واستخبار، وأمر ونهي، ودعاء وطلب، وعرض وتحضيض، وتمن وتعجب، وبذلك يكون ابن فارس أول من أطلق مصطلح (معاني الكلام) على مباحث الخبر والإنشاء، التي أصبحت، فيما بعد، أهم فصول (علم المعاني).

وكان لنظرية النظم أثر كبير في ظهور هذا اللون من الدراسات، وقد وضحت معالم هذه النظرية، وبلغت نضجها عند عبدالقاهر الجرجاني(ت٤٧١هـ) الذي أطال الكلام عليها، وسمّى موضوعات: التقديم والتأخير، والحذف والذكر، والفصل والوصل، والقصر، والتعريف والتنكير، (معاني النحو) أو (النظم).

وضّح عبد القاهر الجرجاني أصول (علم المعاني) في كتابه (دلائل الإعجاز)، وسمّاه (النظم) أو (معاني النحو).

وليس (معاني النحو) إلّا (علم المعاني) الذي عرّفه السكّاكي بقوله: ((هو تتبّع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الإستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره)).

وقد قيل في تعريفه: ((علم المعاني أصول وقواعد يعرف بها أصول الكلام العربي التي يكون بها مطابقا لمقتضى الحال، بحيث يكون وفق الغرض الذي سيق له)).

وقيل: هو علم يعرف به أصول اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال)).

فهو علم يبحث في الطرق التي يجب على الأديب أن ينتهجها، لتكون وافية بمقصوده، موضّحة لمعانيه، مظهرة لما يرمي إليه بحسب حال السامعين،واختلاف طبقاتهم، واتجاهاتهم ونزعاتهم ومقدار ثقافتهم، وبحسب ما يتطلّب الزمان والمكان، ليحقق لكل مقام مقالا.

نظرية النظم

النظم، في اللغة، هو التأليف، وضمّ شيء الى شيء آخر،يقال جمعت اللؤلؤ، أي جمعته في سلك، ومنه نظم الشعر. فالمعنى اللغوي المشترك هو ضمّ الشيء الى الشيء على نسق واحد كحبات اللؤلؤ المنتظمة في سلك.

وهذا المعنى هو الذي ذهب إليه عبدالقاهر الجرجاني، الذي أرسى قواعد النظرية، في كتابه(دلائل الإعجاز)، إذ النظم عنده: ((هو تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض))، أو ليس النظم إلّا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله)).

وقد لاحظ الدارسون أنّ لفكرة النظم بذورا فيما كتبه النحاة والبلاغيون الأوائل ومؤلّفو كتب الإعجاز.

وتعدّ إشارة ابن المقفّع(ت١٤٢هـ) في كتابه (الأدب الكبير والصغير) أقدم إشارة الى صياغة الكلام ونظمه، كما تحدّث سيبويه(ت١٨٠هـ) على معنى النظم وائتلافه، وما يؤدي الى صحته وفساده، وحسنه وقبحه في مواضع من كتابه.

وكذا فعل الجاحظ (٢٥٥هـ) في كتابه (الحيوان)، وسمّى أحد كتبه (نظم القرآن). واهتمّ ابن قتيبة (٢٧٦هـ) بالعلاقات النحوية بين ألفاظ العبارة في كتابه (تأويل مشكل القرآن)، وعقد أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ)، في كتابه (الصاعتين)، فصلا عن النظم وجودة الرصف والسبك قائلا: ((وحسن الرصف أن تضع الألفاظ في مواضعها، وتمكّن في أماكنها)).

نظرية النظم عند عبدالقاهر الجرجاني

١- لم يفرّق عبدالقاهر في كتابه (دلائل الإعجاز) بين مصطلح البلاغة والفصاحة، فإنّه يستعمل (الفصاحة) مرادفة لـ (البلاغة) في مواضع كثيرة منه.
وهما، عنده، لا ترجعان الى اللفظ المفرد، وإنّما الى النظم وكيفيات الصياغة وصورها وخصائصها، أي أنّ اللفظة المفردة، من حيث هي لفظة، لا وزن لها في فصاحة أو بلاغة، وليست لها صفة أدبية ذاتية بحيث يمكن أن تصفها بوصف البلاغة أو الفصاحة، إلّا إذا دخلت في التأليف.
فالألفاظ، عنده، لا تتمايز من حيث هي ألفاظ، وإنّما تكون لها المزيّة حينما تنتظم مع بعضها مكوّنة جملا وعبارات، إذ إنّ اللفظة قد تكون، كما يقول، في غاية الفصاحة في موضع، ونراها فيما لا يحصى من المواضع وليس فيها منالفصاحة قليل أو كثير.

٢- يقول عبد القاهر: إنّ الفصاحة والبلاغة وسائر ما يجري في طريقهما أوصاف راجعة الى المعاني، والى ما يدلّ عليه بالألفاظ دون أنفسها.

وهذا ما سمّاه ((معنى المعنى)) أو ((المعاني الثواني)) ، لأنّ الكلام، كما يقول، ضربان: ضرب تصل منه الى الغرض بدلالة اللفظ وحده، لكنّ اللفظ يدلّ على معناه الذي يقتضيه موضوعه من اللغة، ثمّ تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها الى الغرض.

يقول موضّحا: ((أو لا ترى أنّك إذا قلي: هو كثير الرماد، أو قلت: طويل النجاد، أو قلت في المرأة: نؤوم الضحى، فإنّك في جميع ذلك لا تفيد غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ، ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يوحيه ظاهره، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى على سبيل الإستدلال معنى ثانيا هو غرضك، لمعرفتك من كثير رماد القدر أنّه مضياف، ومن طوي النجاد أنّه طويل القامة، ومن نؤوم الضحى في المرأة أنّها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها.

ثمّ يلخص الجرجاني هذه الفكرة بقوله: ((وإذ قد عرفت هذه الجملة، فها هنا عبارة مختصرة، وهي أن تقول المعنى ومنى المعنى، تعني بالمعنى: المفهوم من ظاهر اللفظ الذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى: أن تعقل من اللفظ معنى، ثمّ يفضي بك ذلك المعنى الى معنى آخر.

ومن هذا يمكن القول: إنّ المعاني الإضافية (معنى المعنى)، عند عبد القاهر، هي أساس جمال الكلام، وإليها ترجع الفضيلة.

٣- الألفاظ عنده، بعد ذلك، تقع مرتّبة على المعاني المرتبة في النفس، لأنّك ترتب المعاني أولا في نفسك، ثمّ تحذو على ترتيبها الألفاظ في نطقك، لأنّه، كما يقول: ((لا يتصوّر أن تعرف للفظ موضعا من غير أن تعرف معناه)).

فالأديب، بناء على ذلك، لا يفكّر حينما يكتب بالألفاظ ولا يطلبها، وإنّما يطلب المعنى، أمّا الألفاظ فتبع له، وتأتي عند تفكيره به، وترتبحسب ترتيبه في النفس، وهذا يشير الى أنّ عبدالقاهر جمع بين اللفظ والمعنى عن طريق ما يحدث بينهما من إلتحام في الصياغة والتأليف.

لنظرية النظم أهمية، وهذه الأهمية تبدو في:

١- أنّها أساس منهجي للكشف عن أسرار البلاغة، والكشف عن الإعجاز البلاغي للقرآن.

٢- الكشف عن معنى النحو ومعاني التراكيب النحوية ي دلالتها الحقيقة والبلاغية.

٣- تكشف النظرية العلاقة بين المتكلم والكلام والمتكلّم والمتلقّي.

٤- أنّ غاية عبدالقاهر من نظريته هو الوصول بتعبيراتنا اللغوية الى مستوى رفيع، ليأتي التعبير عن المعاني مساويا للحقيقة الراسخة في نفس السامع والقارئ والمتكلّم دون زيادة أو نقصان، ودون الحاجة الى اجتهاد في تأويل أو تفسير.

أركان نظرية النظم

تقوم نظرية النظم على أربعة أركان، هي:

١- التقديم والتأخير.
٢- الحذف
٣- الفروق، أي الفرق بين نظم الحروف (حروف العطف مثلا) ونظم الكلم، والفرق بين اختيار الجملة الإسمية والجملة الفعلية مثلا.
٤- الفصل والوصل.

أسس نظرية النظم

١- الترتيب: يرى عبدالقاهر أنّ الميزة البلاغية في الكلام تكمن في ترتيب الألفاظ على وفق ما تقتضيه الصناعة النحوية.

٢- الموقع: وهو ترتيب المعاني في النفس.

٣- التعليق: ويراد منه القرائن اللفظية والقرائن المعنوية في التركيب. فالقرائن اللفظية مثل قرائن الربط (حروف العطف وأدوات الشرط مثلا): جاء سعيد وزهير، وجاء سعيد ثم زهير. والقرائن المعنوية كقرينة الإسناد، وهو العلاقة بين المسند والمسند إليه في الجملة.

٤- الصياغة: يرى عبدالقاهر إنّما سبيل المعاني هو الصياغة الجمالية للألفاظ.

مصادر دراسة نظرية النظم

١- دلائل الإعجاز- عبدالقاهر الجرجاني.
٢- نظرية النظم تاريخ وتطوّر- د. حاتم صالح الضامن .
٣- نظرية النظم عند الشيخ عبدالقاهر الجرجاني- نجاح أحمد الظهار.
٤- نظرية النظم وقيمتها في الدراسات اللغوية- محمد وحيد مراد.